مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (3)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (3) 2013

الخطاب الروائي بين سطوع الواقع وتجليات العجائبي
في رواية " رائحة النار " للكاتب أنور الخطيب

الدكتور حسان رشاد الشامي*

(تاريخ الإيداع 12 / 3 / 2012. قبل للنشر في 21 / 5 / 2012)

□ ملخّص □

واكبت الرواية الفلسطينية مراحل النضال الطويل والشاق الذي خاضه الشعب الفلسطيني – ولا زال– من أجل التحرير، واستطاعت تقديم صورة بانورامية لهذا الواقع بكل ما يحفل به من تحديات ومواجهات، وصراع مع العدو الصهيوني، كما رصدت أبرز التحولات على السّاحة الفلسطينية .

وقد اختلف الكتاب في طرق معالجتهم الفنية لقضايا الواقع الفلسطيني، تبعا لاختلاف رؤاهم، وتوجهاتهم، وتعدد مواقعهم، وانتماءاتهم، وتنوع أساليبهم .

ويعد أنور الخطيب أحد أبرز الأدباء المعاصرين الذين انشغلوا بالهم الفلسطيني، فهو يجسد في خطابه الروائي تلك المعاناة التي عاشها الفلسطينيون تحت الاحتلال من خلال إحساسه العميق، ونظرته الثاقبة لأفاق الصّراع العربي الصهيوني، بأسلوب لافت، إذ يصوغ تجربته الروائية بلغة بالغة الحساسية، شديدة الوقع، فتتألق الكلمات وتتدفق العبارات، وتتوهّج الأفكار المهمة، ويتداخل الواقع بالخيال، ويخترق العجائبي سطح الواقعي، لتتوالد الأحداث، وتتبلور الشخصيات، وتتكشف الأبعاد الفكرية والفنية في عمل إبداعي أكثر التصاقا بالواقع القاسي، وبالأسئلة الكبرى، ليترك القارئ في حيرة ودهشة وتردد ... وهذا ما تجسده رواية "**رائحة النار**" التي ستكون موضوع هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الروائي، الواقعي، العجائبي، الغرابة، تجليات، التخييل، المواجهة .

* مدرس– قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (3)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (3) 2013

Literary Discourse between Reality Brightness and Miraculous Revelations in Anwar Alkhatib Novel "Raehat Alnar"

Dr. Hassan Rashad Alshami*

(Received 12 / 3 / 2012. Accepted 21 / 5 / 2012)

□ ABSTRACT □

The Palestinian Novel has accompanied the long and tough struggle phase engaged by the Palestinian people and is still in process towards liberation. It could present a panoramic image of this reality with all its challenges and confrontations, and struggle against the Zionist Enemy. It also focused on the most prominent changes on the Palestinian arena. Anwar Alkhatib is considered one of the most prominent contemporary literary men involved in the Palestinian concern. In his narrative address, he embodies the sufferings borne by the Palestinians under occupation, through his deep sensation and insight of the horizons of the Arab-Zionist struggle, with an attractive style. He presents his novelistic experience in a sensitive and influential language. His words glitter and his phases flow, shining important ideas. The reality interact with the imagination , and the miracle penetrates the reality to reproduce incidents and to crystallize characters. The intellectual and technical dimensions are exhibited in an innovative work of art much more closer to the tough reality and the major questions .The Reader will be left in bewilderment , hesitation and astonishment .This is what the Novel "Raehat Alnar" embodies ,and which will be the topic of this research.

Keywords: Literary discourse, Realistic, Miraculous, Strangeness, Revelations Imagination, Confrontation.

* **Assistant professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدّمة:

إنَّ الخطاب الروائي* بمفهومه الشامل يتسع لكثيرٍ من التفسيرات ، والمعاني، والدلالات التي ذهب إليها بعض الباحثين، والنقاد تبعاً لاختلاف الآراء، وتعدد المدارس ، والاتجاهات ولكن هذا البحث سينأى عن الخوض في هذه التفاصيل، تجنبا للتكرار والاسترسال وسيكتفي بتحديد مفهوم الخطاب بوصفه الكلام المفيد، ولابدّ لهذا الكلام من أن ينتظم في سياق معيّن، يتخذ خصائص لسانية تميّزه عن غيره، ليؤدي وظيفة دلالية وفنية معيّنة (1). وبمعنى آخر يعدّ " الخطاب الروائي الطريقة التي تُقدَّم بها المادة الحكائية في الرواية، وقد تكون المادة واحدة ، لكن ما يتغيّر هو الخطاب في محاولة كتابتها ونظمها " (2) بغية التأثير في المتلقي، وإيصال الرسالة التي يبتغيها الكاتب بكلّ ما تحفل به من معانٍ، ودلالات، وأبعاد اجتماعية، وفكرية، وسياسية، ونفسية.

ولما كانت الرواية الواقعية تُعنى بمحاكاة الواقع بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة ، وتخضع لرؤية الكاتب وإيديولوجيته من خلال التشخيص الفني ،والتخييل البلاغي ، فإن العجائبية تتجاوز الواقع إلى اللاواقع ، والعادي إلى غير العادي، والمألوف إلى اللامألوف من خلال خاصية التعجيب التي أصبحت من أبرز مظاهر التجريب ، والتجديد في الرواية العربية الحديثة .

وبوصف الرواية فناً تخييلياً ، فإنّ هذا لا يتناقض مع الإيهام بالواقع ،أو الواقعية ، إذ **(لابدَّ أن تكون الرواية " واقعية " بكل وسيلة من الوسائل ، غير أن واقعية الروائي يجب أن تنبثق من حساسيته ،وذكائه وخياله المبدع . الرواية يجب أن تبدو واقعية (فصلابة المواصفات) أمر حيوي بأنَّ الرواية تُقدم واقعاً)** .(3)

أهمية البحث وأهدافه:

يحاول هذا البحث مقاربة الخطاب الروائي ، وتسليط الضوء على جانبٍ مهم من واقع صمود الشعب العربي الفلسطيني ومقاومته، ومن المعاناة اليومية في ظلّ الانتفاضة الفلسطينية، وتحديداً انتفاضة أطفال الحجارة في وجه الاحتلال الصهيوني، بوصفه المرجعية الأساسية التي تشكّل المادة الحكائية لدى الكاتب (أنور الخطيب) في روايته " **رائحة النار**"* إذ يندمج فيها المتخيّل السردي بالواقع الحياتي المعيش ، فيتوازيان أحياناً ويتقاطعان أحياناً أخرى على مدى سيرورة الحدث الروائي .. ليتضح هذا العالم الذي يمتزج فيه الواقعي بالعجائبي،ليؤجج الروح ،ويوقظ الخيال، ليغدو الأسلوب العجائبي تعبيراً عن الواقع الرهيب ، ويؤسس لتجربة روائية متمردة على الذوق التقليدي بسبب تجاوزه للعقل ، ولِما هو طبيعي ومألوف، واحتفائه بالرعب ... وتمجيد البطولة، والتضحية ، والشهادة ، والمصالحة بين الموت والحياة ، حيث يكون للموت معنى وغاية .

*** للإطلاع على ما جاء حول مفهوم الخطاب الروائي يمكن العودة إلى المراجع الآتية : د.صلاح فضل بلاغة الخطاب وعلم النص – كتابا سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، وكتابه القراءة والتجريب في الخطاب الروائي المغربي. – وكتاب محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري. وكتاب عمر عيلان :في مناهج تحليل الخطاب السردي ،و كتاب محمد عزام: شعرية الخطاب السردي . وغير ذلك.**

1 . يُنظر ، مرتاض ،عبد الملك ، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمنية" ، دار الحداثة بيروت ، ط1 1986، ص53 .

2 . يقطين ، سعيد ، تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 1997 ، ص7 .

3– هالبرن ، جون ، نظرية الرواية ، تر: محيي الدين صبحي ، وزارة الثقافة ، دمشق 1981 ، ص493.

*** الخطيب ، أنور ، رواية رائحة النار ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1990.**

منهجية البحث :

يحاول هذا البحث أن يعتمد منهجاً مرناً يخدم منطق العمل الفني المدروس وأغراض مُبدعه ، لذا اختار المنهج الاجتماعي الذي يربط الأدب بالمجتمع، بغية الولوج إلى عالم الرواية ، والإحاطة بأبعادها الفكرية والاجتماعية ، والسياسية، وتسليط الضوء على أبرز السمات الفنية والجمالية فيها .

العرض والاستشهادات:

في هذه الرواية المتميزة بأسلوبها، والحافلة بالصور، والمشاهد ،والأحداث ،والشخصيات ،التي ترتبط بالواقع ، وتعبّر عنه بما تُجسّده من صور المواجهة ،والصراع المستمر "بين براءة الطفل وجماله، وسطوته السحرية التي يُجسدها جميعاً "**عارف الصّغير**" (هذا العفريت البديع والملاك المنقذ ،وبين القسوة والقبح والشناعة النفسية والبدنية التي يجسدها الحاخام حاييم ، وهو يخطط لمزيد من القبح والقسوة)".[3] يضعنا أنور الخطيب في بؤرة الحدث في قرية "**بيت ناصر**" وهي تواجه مصيرها، وتقف في وجه القمع والاضطهاد الصهيوني من خلال صراع غير متكافئ ، **((ويقحمنا ببراعته في عالم حاييم ومريديه الذين يقيمون طقوسهم على اللحم البشري ، وتفوح منهم رائحة الأضاحي والقرابين المذبوحة حيث يجب أن يكون الدم آدمياً عربياً ، ومن بين هذه القرابين الطفلة ، تلميذة المدرسة " لينا النابلسي" ... وفي الوقت نفسه يأخذنا المؤلف بفتنةِ عارف الصغير هذا الطفل العجائبي الذي ابتدعه روحاً للقرية، لا تطاله يدٌ ، ولا تنضب حكاياته ويعرف السر في توالد الحياة من ديمومة الصّخر حتى يسقط أخيرا سور الكيبوتز إزاء حجارة القرية وزجاجاتها الحارقة)).** [4]

معالم المواجهة والتحدي :

تتجلى مظاهر هذه المواجهة من خلال رصد الواقع اليومي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال متمثلا في قرية " بيت ناصر" بكل ما يحمله هذا الاسم من دلالات : السكن ، الألفة ، الوداعة ، التكافل الاجتماعي بين أبناء القرية، وحبهم للحياة، وتفاؤلهم بالمستقبل الواعد ، وبالنصر الذي سيكون حليف هؤلاء المناضلين الصامدين من سكان القرية : الأطفال، والصبية العفاريت المنتفضون ،المدهشون، المتعالون على ألامهم وجراحهم ، المتسامون على واقعهم المرير. وهذا ما يؤكده عزرا بشكل غير مباشر عبر مشاهداته، وهو يرصد الواقع ،ويراقب بمنظاره تحركات أهل القرية ،وتصرفاتهم ،وكيفية تأمين حاجاتهم الحياتية بما يشبه المعجزة ، على الرغم من الحصار الجائر* وهذا ما يدفعه للدهشة ، والاستغراب، وهو يروي ذلك للحاخام حاييم وأتباعه ؛(عصابته من المستوطنين) : كوهين، شمعون، إسحاق ، صاحب الرشاش وغيرهم ممن يمثلون المؤسستين الدينية والعسكرية في الكيان الصهيوني .

في ظل هذا الواقع المأساوي الضاغط على الإنسان العربي الفلسطيني، يحاول الكاتب أن يستخلص من الأحداث اليومية رموزاً عنيفة الوقع ، بعضها للدهشة والطيبة ، وبعضها للاستفزاز ،وبث الرعب ، مؤكداً في كلّ الأحوال على مخيلةٍ تُغني الحياة بشخوصها ، وتزيد من صلابة الإرادة في النفاذ إلى المستقبل، حيث الأرض الفلسطينية التي **(تنبت أطفالاً لا يخافون الموت، يظهرون كالرّعد، ويختفون كالبرق)** [5].

---

[3] **الرواية – المقدمة، بقلم جبرا إبراهيم جبرا ص7 –8 .**

[4] **المصدر السابق ، المقدمة ص 8 .**

* **للوقوف على بعض هذه المشاهد يمكن العودة إلى الرواية ص21–22 وغيرهما .**

[5] **الرواية (مقدمة) ص9 .**

وتتكشف أبعاد هذا الصراع والمواجهة المفتوحة بين " **الكيبوتز**" الذي يشكل القاعدة العسكرية المتقدّمة لمستوطنيه الحاقدين.. وهذه القرية المحاصرة الصامدة . إنه صراعٌ من أجل البقاء والوجود بالنسبة لكلا الطرفين ، فبعد أن أدرك الاحتلال فشله في تحقيق حلمه بدولة يهودية نقية ، وعرف أن العرب الصامدين ، هم أول أسباب هذا الفشل، بدأ بمحاولته الجادة والمحمومة لتقليص هذا لوجود العربي بكل السبل الممكنة ، لكنَّ عرب فلسطين لم يكتفوا بالثبات، والتمسك بالأرض فحسب، بل حافظوا على هويتهم ،وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد ساعدهم على ذلك بصورة غير مباشرة الطبيعة العدوانية، والعنصرية للصهيونية.[6] ومن هنا فقد ركز الاحتلال جهوده على تحويل حياتهم إلى همٍّ مقيم،وكابوسٍ حقيقي، بُغيَة استئصالهم من أرضهم، وهذا مايُفسر سياسته العدوانية الممنهجة بحقِّ هذا الشعب.

تسير الأحداث في الرواية سيرا متعاقباً ، وتقوم في جانب منها على الفعل، و رد الفعل المتصف بالعفوية حيناً، وغالباً بالتخطيط والمنهجية من كلا الطرفين ، ففي تلك المساحة المكانية المحددة مابين " **الكيبوتز**" بمستوطنيه القتلة الحاقدين : الحاخام حاييم ، كوهين ، شمعون ، إسحاق ، عزرا.. وغيرهم ، وقرية "**بيت ناصر**" تتحرك الشخصيات، لترسم آفاق المواجهة ، ويتجسد الخطر المحدق بأهل القرية ، من أطفال ونساء وشيوخ. ففي تلك الأجواء المتوترة المشحونة بالخوف، والرعب ،والموت ،تصير الحياة أكثر توهجاً ،وتألقاً وإشراقاً ، وتغدو المواجهة أشدّ تحدياً و إصراراً وتجذّراً .

تتكشف معالم الخطر من خلال ما يقوم به "**حاييم وعصابته** " من أفعال شنيعة ،بوصفهم يمثلون معسكر المتطرفين الفاشيين الجدد في المجتمع اليهودي الصهيوني ، وما يمارسه هؤلاء من عمليات الاعتداء، والقتل البطيء بتلذذٍ، وبأعصابٍ باردةٍ ، وبنشوةٍ غريبة ، إذ يعتقد الحاخام أنه ينفذ إرادة الرب، وتعاليم التوراة لتحقيق الحلم اليهودي الصهيوني عبر تقديم الأضاحي ،والقرابين البشرية .... فلنستمع إليه وهو يتحدث إلى مريديه ؛ إذ يقول : **(يجب أن يكون الدم لآدمي ، ويُفضَّل أن يكون عربياً ، والأحسن أن يكون بكامل وعيه حتى يتقبّل الله القربان ، ونحتفل بيوم الغفران ، ونأكل فطيراً ساخناً)** [7].

وعلى الجانب الفلسطيني تتحدد آفاق المواجهة بالتحدي ، وابتكار أساليب المقاومة، ويتمثل ذلك في بعض المواقف والمشاهد والأحداث التي تحفل بها الرواية ، ولاسيما مواجهة الحصار الخانق، وتصدي الأطفال والصبية، والملثمين، لجنود الاحتلال وعصابات المستوطنين بالحجارة والمقاليع والزجاجات الحارقة، وحفر الأنفاق ،ونصب الكمائن للجنود، واستدراج الأطفال لهم ،بغية إيقاعهم بأيدي الملثمين، أو إرسالهم إلى المصحات العقلية*،بعد استفزازهم، وبثّ الرعب في نفوسهم ... فهاهو ذا عزرا يتحدث عن هؤلاء الأطفال العفاريت وما كان يفعله في طفولته، فيقول : **(الأطفال وحدهم يقودون الجنود إلى المصحات العقلية ، نحن كنا أطفالا وصنعنا المعجزات .. أتذكّر أنني أحرقت حقلا كبيرا من القمح ، وقد رأيت صاحبه وهو يُشوى في وسطه يقفز كالمجنون .. مات الرجل ، ولم يذهب إلى المصح العقلي)** .[8]

ويتابع عزرا قائلاً لحاييم : **(ألم تسمع بقصة الجندي الذي مات بالسكتة القلبية ، وهو يسير في دورية ويحمل أقوى الأسلحة فتكاً .. لم يضربه أحد بحجر، لم يُلقِ عليه احدهم زجاجة حارقة . كان الأطفال يَطلّون فقط**

---

[6] **يُنظر أبو بكر، وليد:الواقع والتحدي في رواية الأرض المحتلة،دائرة الثقافة في م ت ف. ط1 / 1988 ص33**

[7] **الرواية ص127 .**

* **للوقوف على بعض صور المقاومة في الرواية راجع ص 29 – 30 –31– 60**

[8] **الرواية ص 28.**

من خلف الجدران ، ومن النوافذ والسطوح . كانت رأسه تدور ، وقلبه يخفق بشدة ، لم تتحمل أعصابه انتظار الحجر، سقط أرضاً ، شدَّ على صدره، ثم فارق الحياة)[9].

وإذا كانت سياسة القمع والإرهاب والحصار التي يتبعها الاحتلال تقضّ مضجع الفلسطينيين وتحرمهم من أبسط حقوقهم، ومتطلبات العيش ، وتغتال براءة الأطفال ، فقد استطاع الفلسطينيون بصمودهم وتضحياتهم أن يحققوا مبدأ "**توازن الرعب**" مع الكيان الصهيوني الذي يعيش مأزقاً يهدد استقراره، ووجوده على هذه الأرض التي ترفض وجوده، وتود أن تلفظه بعيداً ؛ فالأرض والشجر والبشر والحجر والماء والزهر كلّها ترفض الاحتلال،ولا عجب أن نسمع أحد قادة المستوطنين يعبر عن هذه الحقيقة: **(إننا نعيش فوق أرض جوفاء لابدَّ من التأكد ،وإحضار أجهزة حديثة. لابدَّ من اكتشاف هذه الأنفاق ..)**[10].

فعلى الرغم من التحصينات، والاستحكامات كلّها التي يقيمها العدو حول " **الكيبوتز** " ، وتسليح المستوطنين بشتى أنواع الأسلحة ، فإنّه مازال يعيش حالة من الرعب والهلع ... والحوار الآتي الذي دار بين الحاخام وعزرا يوضح ذلك : **((لا أدري لماذا يصيبنا الجبن ونحن نتصدى لهؤلاء الأشقياء،نرتعد منهم، نقود السيارة بجنون ، وربما نموت قبل أن نصلهم أو نتجاوزهم . المسألة تحتاج إلى جرأة ،وتأجيل العاطفة والرأي العام قليلا، ويجيبه عزرا: أنت لا تعرف الكثير عن هؤلاء العفاريت ،لقد استولواعلى أحلامي أمس ، جرجروني عبر ثقب صغير في الأرض إلى مكان تتكوم فيه العتمة كالقبور، وهناك سمعت صوت النرجسة ،والطير الصغير ،والماء... وجوههم تضيء ، يختفون كالبرق، ويظهرون كالرعد، يهاجموننا كالمطر...))**[11].

ولذلك لا يشعر عزرا كغيره من المستوطنين بالأمن والطمأنينة،إلّا في مقر قيادة المقاطعة بجانب صديقه الضابط "**دانييل**" الذي يرحب به في منزله الآخر والأخير ، في هذا المكان فقط **((يتخلص من أشباح أطفال"بيت ناصر" التي تطارده في يقظته ونومه وأحلامه . هنا يتخلص من رائحة الحاخام الغريبة ، له رائحة القصّابين . تسكنه رائحة دم لا يُعرف مصدرها ، فتذكرّه بالخنازير والضباع ، بقايا لحم نتن ورائحة نبيذ ممزوج بمادة كريهة. وأخيراً رائحة البارود والقتل .. لأول مرة يشاهد عزرا كاهناً يقتل طفلا يرعى غنمه تذكر قصة قتل المسيح . سلخته صورة الطفل الذي انبطح ، ولم ينهض ، وقطيع الأغنام الذي عاد دون صاحبه)**[12].

إن المشكلة الحقيقية التي يواجهها الكيان الصهيوني، لا تتمثل في الوجود العربي الفلسطيني فحسب بل تتمثل أيضا في وجود معسكر الفاشيين الجدد، أمثال حاييم وعصابته ، الذين يؤمنون بأن الصراع مع الفلسطينيين هو صراع حياة أو موت. إذ يقول حاييم : **((المعادلة واضحة، إمّا أن تسمح لهم بالحياة، وتنتظر موتك، وإمّا أن تعجل بموتهم، وتفوز بحياتك... هم يحملون الحجارة وأنت تحمل بندقية آلية...))**[13]. فالمشكلة التي يمثلها هؤلاء القتلة الحاقدون المتطرفون، تكمن في أفكارهم وسلوكهم ،وهم ممن يسمون أيضا بمعسكر " **المختلين عقليا** " ويمثلون شريحة واسعة من المجتمع الإسرائيلي كما **(يعتقد المعلّق الإسرائيلي "زئيف شيف" الذي ينصح الإسرائيليين بقوله: لكي تواصل (الدولة) البقاء، على إسرائيل...أن تُسقط الحاخامات من عروشهم ،وتَحجر على تلامذتهم المهووسين. ذلك يتضمن**

---

[9] **الرواية ص 60-61 .**

[10] **الرواية ، ص36 .**

[11] **الرواية ، ص 60 .**

[12] **الرواية ، ص 64 .**

[13] **. الرواية ، ص 61.**

أيضا قطع المعونات الحكومية عن المدارس التوراتية ، ومنظمات الشباب التي تزرع الأفكار اللا ديمقراطية في عقول الناشئة) .[14]

إن أقوال الحاخام وأفعاله التي تنتهك جميع المحرمات ، تأتي تجسيدا عمليا لتعاليم التوراة **(التي جعلت من الإنسان اليهودي كائنا أعلى ، فوق كل الشعوب ، ولكنه مع ذلك بدون فضائل ، فمكان الإنسانية حلت النرجسية والأنانية وعبادة الذات)** [15]. ونظرة متأنية لبعض التعاليم التوراتية ، تساعد في اكتشاف حقيقة اليهودي الصهيوني كما يجب أن يكون ، ولذا فإن ارتكابه لهذه الأفعال الشنيعة لا تأتي بوصفها رد فعلٍ، أو انفعال آني على مقاومة بسيطة ، سواء أكانت مسلحة ، أم غير مسلّحة ، وإنّما هي سياسة ممنهجة ،ترتبط بتكوينه النفسي والفكري والعقائدي وبموقفه من الآخر ، ولاسيما الإنسان الفلسطيني ، كما تستوحى من التوراة ، وما هو واجب مقدس فيها، وعلى اليهودي الصهيوني أن يجسّدها على أرض الواقع ،كي يحقق ذاته وحلمه . وهذا ما يجسّده حاييم على أرض الواقع من خلال ممارسة طقوس القتل، والافتراس ، والهيجان والشذوذ الجنسي ، وتقديم القربان " **لينا النابلسي**" وغيرها. يقول : **(نحن أسياد العالم، نُقسم أننا من السلالة الأنقى، وما تبقى من أجناس ومخلوقات لإشباعنا وراحتنا وفرحنا. دمهم لعطشنا ، لحمهم لجوعنا ، عظمهم لكلابنا ، رددوا ... نحن أسياد...)** [16].

وانطلاقا من اعتقاد اليهود(**بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناؤه وأحباؤه،وغيرهم جوييم*** "**Goyem** " – **أي عُبَّاد أوثان وكفره – فإنهم يُسرفون في التعالي ،والقطيعة بينهم وبين غيرهم إلى درجة فوق الجنون فهم يعتقدون أن خيرات الأرض ، والعالم أجمع، مِنحةٌ لهم من الله... ومن حق اليهود ، بل من واجبهم المقدس ، معاملة الأمميين كالبهائم ... فلهم أن يسرقوهم ، ويُكَذِبوا عليهم ، ويخدعوهم، ويغتصبوا أموالهم ويهتكوا أعراضهم، ويقتلوهم ، ويرتكبوا في معاملتهم كل الموبقات ، والله لا يعاقبهم على هذه الجرائم، بل يعدُّها قرابين ،وحسنات يُثيبهم عليها ، ولا يرضى منهم إلا بها ، ولا يعفيهم منها إلا مضطرين)**.[17] فالدم العربي هو القربان على مذبح اليهودي الصهيوني وهو ما يبعث السرور والرضى في نفس حاييم : **(أنا مسرور لأنني أشعر برضى الرب عني، أحضر قرابيننا، أذبحها على معبده ...)** [18]

إن المواقف والأحداث التي تجسّدها الشخصيات الصهيونية في الرواية ، تشير إلى مدى العداء والكراهية المتجذرة في نفوسها، ولعل ذلك ما يفسّر محاولات اليهود الصهاينة في تضييق الخناق على العرب داخل الأرض المحتلة، لكسر إرادة المقاومة والصمود في نفوسهم، ودفعهم إلى الهجرة بكل السبل الممكنة، عن طريق إتباع سياسة التنكيل، والعدوان، **والحرب الاستباقية، والقتل الاحترازي***، وهذا ما يقوم به جنود الاحتلال والمستوطنون، فخير وسيلة للدفاع هي الهجوم ،كما يعتقد الصهاينة. "وخير النتائج في حكم العالم ما يُنتزع بالعنف والإرهاب،

---

[14] . حديدي، صبحي ، ساحة صهيونية واحدة لحلم واحد نظيف ، مجلة الكرمل ، رام الله ، العدد 53 خريف 1997 ص8 .

[15] . عرب، محمد، الشخصية الصهيونية– ملامحها في الرواية الغربية وجذورها التوراتية، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1983 ص313.

[16] . الرواية ص 108.

*** المراد بالجوييم أو الأمميين من عدا اليهود، ومعنى الكلمة عندهم البهائم والأنجاس والكفرة والوثنيون وفي هذا ما يدل على نظرة اليهود إلى من عداهم نظرات الحقد والاحتقار والاشمئزاز...**

[17] التونسي ، محمد خليفة، (المترجم): الخطر الصهيوني، بروتوكولات حكماء صهيون، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951، ص16–17 .

[18] الرواية ص104.

*** وهذا ما جسده الحاخام في أفعاله حين قتل الطفل الراعي أحمد عبد الله ، وحضَّ أتباعه على قتل النساء الحوامل ، والأطفال الرضع . يُنظر الرواية ص 62–63 .**

لا بالمناقشات الأكاديمية" [19] والحق يكمن في القوة ، وكلمة " **الحق** " لا تعني أكثر من (**أعطني ما أريد، لتمكنني من أن أبرهن لك بهذا على أني أقوى منك**)[20].

مما تقدّم تتضح رؤية الكاتب لآفاق هذه المواجهة ،وأبعادها وعنف الصراع، على الرغم من اختلاف موازين القوة، والصراع غير المتكافئ بين الطرفين إلا أن الثقة معقودة على الأجيال القادمة التي يشكل نواتها هؤلاء الأطفال (أطفال الحجارة)الذين عرفوا عدوهم، وعقدوا العزم على مواصلة الطريق ،ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الصبر والصمود والتضحية ، فالطريق إلى النصر والتحرير، مازال طويلاً وشاقاً .

العجائبي – الدلالة اللغوية والاصطلاحية :

ليس للنقد الحديث مرجعية واضحة ودقيقة لمصطلح العجائبي، نظراً ((**لثراء المفهوم واتساعه الناتج عن ثراء النصوص الزاخرة بالعجائبي في كل أشكاله**)) [21] لذا فقد كثرت تعريفاته ، وتعددت مفهوماته لأسباب تتعلق في بنيته، وطبيعته، ومصادره، و وظيفته التي يصعب تحديدها.

وقد استخدم النقد الغربي للتعبير عما هو غرائبي مصطلح (**fantastqiue > fantastic**) إشارة إلى ما هو غير طبيعي، وغير مألوف، يثير الدهشة، والحيرة، والتردد لدى الإنسان. والحقيقة لم نعثر في المعاجم العربية على ما يقابل هذا المصطلح، فقد استخدم العرب مصطلح العجائبي لقربه منه نظراً لاشتراكهما في الدلالات كالعجب، والتعاجيب، والعجائب... وقد جاء في لسان العرب في مادة عجبَ ما نصّه :

(عجب.. العُجبُ والعَجَب : إنكار ما يَرِدُ عليكُ لقلةِ اعتياده) .[22]

وكثيراً ما يتلازم مفهوم العجائبي بالغرائبي، أو الغرابة ويتداخلان، وقد يترادفان في الاستعمال لدى عدد غير قليل من النقاد والباحثين ، كما تشير إلى ذلك بعض الدراسات في هذا المجال فالغرائبي أو الغرابة (**ليست مصطلحاً أحادي البعد بسيط المعنى ، بل إنه مصطلح متعدد الأبعاد ، مركب المعاني، متنوع الدلالات ... وإنَّ من معانيه ،حضور الموت في الحياة ، وحضور الحياة في الموت ، وظهور المألوف في سياق غير المألوف، وظهور أشباح الماضي ، وأفكاره ، وسلوكياته في الحاضر، وربما في المستقبل ... ومن معانيه أيضاً تحول الساكن إلى متحرك ، وعودة الموتى إلى الحياة ، ودخول الأحياء عالم الموتى... هذه الحيرة المعرفية ، والالتباس الذي لا نعرف معه ما إذا كان شخص ما حياً ، أو ميتاً هي أيضاً أحد المعاني الخاصة للغرابة**) [23].

وهذه المعاني تلتقي في معظمها مع معاني العجائبي، وطبيعته، لذا تبدو الحدود بين المصطلحين واهية لتداخل كل منهما مع الآخر، من حيث المعنى، والوظيفة، والمصدر، والاستعمال... وسينأى هذا البحث عن الخوض في تبيان حدود كل منهما، وتفصيل ذلك .

ويكتفي البحث بالتعامل مع مصطلح العجائبي بمعناه الذي يستند إلى تداخل الواقع بالخيال، والعادي بغير العادي، والحقيقة بالوهم، وتجاوز السببية، وتوظيف التّحول والتبدل، ولعبة المرئي واللامرئي، والحضور والغياب بحيث

---

[19] التونسي ، محمد خليفة ، الخطر الصهيوني... ص57.

[20] المرجع السابق ص61.

[21] حليفي، شعيب ، بنيات العجائبي في الرواية العربية ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة شتاء 1997 ، ص 114.

[22] ابن منظور، لسان العرب (مادة عجب)، دار المعارف ، مصر ، 1979 ، ص 2811 .

[23] عبد الحميد، شاكر، الغرابة ، المفهوم وتجلياته في الأدب ، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، العدد 384 ، الكويت 2012 ، ص9.

يؤدي إلى حيرة المتلقي وتردده ، ويثير دهشته، وهو يقف بين عالمين متناقضين متعارضين:عالم الحقيقة والعقل، وعالم التصوّر والوهم والتخييل.

تجليات العجائبي في الرواية :

سخّر الكاتب أنور الخطيب البعد العجائبي في روايته لخدمة الواقعي ، وجعله وسيلة للتعبير عن التحولات المذهلة التي أصابت الواقع الفلسطيني في زمن الانتفاضة، إذ لم يعد الروائي قادراً على تصوير المعاناة في عالم شديد التعقيد ، والتركيب بالأدوات الواقعية التقليدية المألوفة ، ولاسيما بعد تعرضه لسلسلة من المحن والانتهاكات ،والاستفزازات التي لا يمكن التصدي لها بسهولة، ولذا فقد أسهم البعد العجائبي في مواجهة حالة القهر والاستلاب الإنساني غير المعقولة عن طريق توظيف الخيال الخصب ، واختراق قشرة الواقعي .

وقد تمّ توظيف العجائبي في الرواية العربية بأشكال وطرق متنوّعة ، فمن الروائيين من لجأ إلى التلوين العجائبي في روايته، أي اعتماده كبنية جزئية في السياق الروائي ،بغية التجريب والتنويع والتجديد. ومنهم من اختاره خطابا فنيّاً كلّياً لرؤية عالمه الروائي .

غير أنَّ العجائبية بما تمتلكه من عناصر تخييلية إدهاشية، لا تمثل هروباً، أو تخاذلا عن مواجهة فظاعة الواقع وتناقضاته، بل هي محاولة لإعادة قراءة الواقع ، واستبطان معانيه ومدلولاته بهدف استجلاء الحقيقة ، وكشف الغموض الذي يكتنف الواقع، وتفسير تناقضاته ، وأزماته ،مما يخلق عالما متخيلاً يتعارض مع الواقع ظاهرياً **(معارضة لا تقوم على إلغائه ، بل تأكيده عن طريق طرح البديل أحيانا، كإشباعٍ لحاجات الروح والقلب ، وإشادة عالم ،أو فردوس مفقود في الواقع، أو تأكيده عن طريق صياغة السِمة الأساسية فيه)** .[24]

تستمد رواية " **رائحة النار** " طابعها الواقعي– العجائبي المميّز، من خلال جمعها بين ما هو شديد الوضوح في الواقع الفلسطيني المعيش، وما هو غير طبيعي، أو لامعقول من مظاهر هذه المواجهة، كعودة الأموات إلى الحياة، **(عارف الصغير، لينا النابلسي ،وشقيقها المصطفى ..)** [25] وظاهرة الوجوه المضيئة [26]، والاختفاء والظهور[27] ، وتحوّل الأطفال الشهداء إلى أزهار وورود، وأشجار زيتون و جميز[28] . كذلك تحوّل القرية المحاصرة التي قُطعت عنها الكهرباء، ومصادر التموين من طعام وشراب منذ ما يزيد عن أسبوع.. إلى ما يشبه مدينة الملاهي التي تتلألأ فيها الأضواء، وتُفرشُ الموائد العامرة، بما لذَّ وطاب من أنواع الطعام، والفاكهة في بيوت القرية[29] تبعاً لما يراه عزرا بمنظاره، وهو يرصد، ويراقب تحركات أهل القرية .

وتُطالعنا الرواية . إضافةً إلى هذه الظواهر العجيبة بالحكايات الساحرة عن العفاريت والجن والشاطر حسن، والشاطر محمد[30]، وكذلك ممارسات حاييم العدوانية مع مريديه، من خلال طقوس الافتراس، والقتل وأكل اللحم البشري، وشرب الدماء[31]... وغير ذلك مما يثير الخوف والهلع إلى جانب الدهشة والتردد لدى شخصيات الرواية،ولدى المتلقي.

---

[24] الحميدي، أحمد جاسم، ومحمد جاسم: الرواية ما فوق الواقع ، دار ابن هانئ ،دمشق ط1/1985 ص12.

[25] ينظر الرواية ص128 ، 129، 130.

[26] ينظر الرواية ص 20 ، 23.

[27] ينظر الرواية ص14 ، 92 ،132.

[28] ينظر الرواية ص 119 ، 132.

[29] ينظر الرواية ص21 ، 22

[30] ينظر الرواية ص86، 87 ،122.

[31] ينظر الرواية ص104 ،105 ،108.

إنّ ذلك كلّه يضعنا أمام مأزق ذي حدين: نصدق، أو لا نصدق، ويحقق هذا الجمع المستحيل دافعاً للقارئ كي يصدق وهو في قرارة نفسه غير مصدق، وهذا ما يؤدي إلى إحداث كثافة انفعالية خاصة مصدرها الحيرة ، والغموض من تقبل ما نقرأ أو نسمع .

إنَّ الغرابة التي تميّز بعض شخصيات الرواية ، ولاسيما الحاخام حاييم بشذوذها، وفظاعتها، وعدوانيتها وما تمتاز به شخصية الطفل " **عارف الصغير** " بوداعتها، وبراءتها وبتحولاتها وأبعادها الدلالية، ما هي إلّا نتاج لواقع مأساوي غير منطقي، يكشف أبعاد هذا الصراع ، ويجسّد العوالم الظاهرة والخفية المؤججة لهذا الصراع، فحين **(يخلق الروائي شخصيات بعيدة عن الأنماط المألوفة، متميزة بالغرابة أو الشذوذ فهذا أمر مشروع شرط أن يقنعنا بهذه الشخصيات في حركتها ، وفي وجودها وطاقاتها على تصوير ناحية من نواحي النفس البشرية)**[32].

ولعل الكاتب استطاع من خلال تصويره لهذه الشخصيات غير المألوفة ، أن ينطلق عبرها من الخاص إلى العام، فكان لها دلالاتها المتعددة على مستويات: سياسية ، واجتماعية، وفكرية، وذهنية، ونفسية، وهذا ما جعل الرواية تتسم بالواقعية العجائبية التي تجعل **(النص الروائي صادماً ومثيراً، لأن الذي يفاجئ المتلقي هو ظهور أحداث استثنائية خارقة داخل الإطار الواقعي، والطبيعي للنص)**[33].

إنّ لجوء الكاتب إلى الأسلوب العجائبي الذي يقوم على مزج الواقع بحدث أو أحداث، أو شخصيات وغير ذلك مما هو مأخوذ من التراث، والأساطير، والحكايات الشعبية السّاحرة * وربما من خيال الكاتب، جاء ليضفي على الرواية نوعا من الإثارة، والحيرة، والسحر، والدهشة، من خلال ما يولِّدُه العجائبي من دلالات ومعانٍ غزيرة، وإيحاءات متباينة،تجعل المتلقي في حالة من التردد مابين الممكن،وغير الممكن، في هذه الرواية الصاعقة، إذ يقترب الواقعي من العجائبي، ويقف كلٌّ منهما على تخوم العقل، ويبتعد عنه في آنٍ معاً، وهذا ما يدفع إلى الاستغراب والدهشة من خلال وقوف القارئ أمام تلك الأحداث المفزعة، والشخصيات الغريبة سواءٌ أكان ذلك بتحولاتها ،وحكاياتها الساحرة **(حكايات عارف الصغير، ولينا النابلسي، وشقيقها المصطفى)** أم بأفعال بعض الشخصيات الشنيعة** **(الحاخام وأتباعه)** التي لا يمكن تفسيرها بما ينسجم مع قوانين الواقع والمنطق، ولكن تبقى على حدود تقبل العقل لها، وإنكارها معاً.

ويتمثل البعد العجائبي في الرواية أيضاً في إظهار بعض الكرامات، حين يخترق العجائبي القانون الطبيعي كرامة لضريح رجلٍ صالحٍ، أو لروح شهيد، أو لطفل قُتِلَ بوحشيةٍ **(لينا النابلسي، وأحمد عبد الله)** فتتداخل الحياة بالموت،ويعود الموتى إلى الحياة، وقد يتحول جسد الشهيد إلى زهور وورود وأشجار زيتون وجميز وبرتقال.. ويختلط الحضور بالغياب، والقريب بالبعيد كما هو الحال بالنسبة لحضور الطفل عارف الصغير الغائب الحاضر الذي يظهر في أوقات الشدّة، كأن يظهر لتشييع جثمان " **أحمد عبد الله** "، أو ليحكي بعض الحكايات السّاحرة للأطفال ،والكبار ليخفف عنهم بعض آلامهم، ويحفّزهم على الصبر والثبات لتصبح هذه الشخصية رمزاً شاملاً يمثّل روح القرية، وأطفال فلسطين، ولتأخذ هذه الشخصيات الأخرى أبعاداً دِلالية عميقة في تاريخ النضال الشّعبي الفلسطيني، إذ استطاع الكاتب توظيف بعض الشخصيات الغريبة ذات البعد العجائبي في سياق السّرد الروائي **(عارف .. لينا .. المصطفى)** وهذا الأخير كان يسير على الجمر حافياً **(ويمر بين ألسنة اللهب . كان يغطس في أول البحيرة، فلا يخرج منها إلّا في آخرها . كان يلعب مع العصافير الصغيرة)** .[34]

---

[32] **حمّود ، د.ماجدة، علاقة النقد بالإبداع الأدبي ، وزارة الثقافة – دمشق 1997 ، ص112.**

[33] **علي خليل ، لؤي ، عجائبية النثر الحكائي – أدب المعراج والمناقب ، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق 2007 ، ص44.**

* **للوقوف على بعض حكايات عارف الصغير الساحرة عن الجن والعفاريت والشاطر حسن،والشاطر محمد والحورية الذكية يمكن العودة إلى الرواية ص72 -73- 125 .**

** **للوقوف على بعض مشاهد العنف راجع الرواية ص108 ومابعدها.**

[34] **الخطيب ، أنور ، رواية رائحة النار ، ص130.**

إنّ ما كل ما تقدم يضعنا أمام عالم القرية الفلسطينية بما يحفل به من متناقضات ، مُجسِّداً روح المقاومة والصمود، وحبّ الأرض، والتشبّث بها من جهة، ومبيناً الفظائع والحماقات، والنزعة العدوانية لدى الكيان الصهيوني متمثلاً بحاييم، وعصابته وجنود الاحتلال من جهةٍ ثانية. وبذلك يحقق العجائبي ما عجز عنه الواقعي، فيتجاوران لخلق أجواء غير متوقعة تشكّل صدمة لكلّ ما هو يقيني بدهي.

- الخاتمة :

نخلص من كل ماتقدم إلى أنَّ (رائحة النار) تُجسد عالماً روائياً يحاكي الواقع بكل ما يزخر به من ألمٍ ووجع وهمٍ وصمود، إذ ترصد الأحداث الساخنة، والمواقف المؤثرة، والحالات الصادمة، بعد أن يُعمل الكاتب فيها مخيلته الخصبة، ويضفي لمساته الفنية ،فيمتزج فيها المعقول باللامعقول، والمألوف باللامألوف، بأسلوب عجائبي يتطلب من القارئ قدراً من الوعي والتركيز لمشاطرة الكاتب جانباً من أحاسيسه وانفعالاته وطموحه. لذا يمكننا أن نسجل حول البحث النقطتين الآتيتين :

1-قدمت الرواية رؤية شاملة لطبيعة المواجهة ، والمعاناة اليومية التي يعيشها الفلسطيني تحت الاحتلال،في ظل انتفاضة الحجارة ، وجسدت صموده الباسل في وجه القمع الصهيوني الذي فاق التصور ،وتحديه لكل الأساليب العدوانية بمزيد من الصبر و الصمود الأسطوري، والتلاحم وتقديم قوافل الشهداء من أجل التحرير .

2-امتلك الكاتب القوة ،والقدرة في تعبيره واستخدام الحلم لتجسيد رغبته في تحرير فلسطين ،فتحول ما هو واقعي إلى ما هو عجائبي أسطوري ،إذ كشفت الرواية عن مكنونات الكاتب والحلم الذي يراوده ،من خلال توظيف الأعمال الخارقة التي يقوم بها أطفال الحجارة لتحقيق أهدافهم ضمن بطولات خيالية. ولذلك جاءت النبوءة في نهاية الرواية في سقوط الكيبوتز.

المراجع

- ابن منظور، لسان العرب ، دار المعارف ، مصر ، 1979 ، 2811 .
- أبو بكر، وليد، الواقع والتحدي في رواية الأرض المحتلة ، دائرة الثقافة في (م ت ف) ط1 / 1988.
- التونسي، محمد خليفة، الخطر الصهيوني- بروتوكولات حكماء صهيون، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951.
- حديدي، صبحي: "ساحة صهيونية واحدة لحلم واحد نظيف"، مجلة الكرمل، عدد 53، رام الله، خريف 1997.
- حليفي، شعيب، "بنيات العجائبي في الرواية العربية "، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، شتاء 1997.
- حمود ، د.ماجدة ، علاقة النقد بالإبداع الأدبي ، وزارة الثقافة ، دمشق 1997.
- الحميدي، أحمد جاسم ومحمد جاسم، الرواية ما فوق الواقع بحث في ظواهر تأصيل الحديث الروائي العربي – دار ابن هانئ ، دمشق ، ط 1 ، 1985.
- الخطيب، أنور، رواية رائحة النار، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1990.
- عبد الحميد، د.شاكر، الغرابة- المفهوم وتجلياته في الأدب، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع 384 ، الكويت 2012.

- عرب، محمد، الشخصية الصهيونية ملامحها في الرواية الغربية وجذورها التوراتية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1983.
- علي خليل، لؤي، عجائبية النثر الحكائي– أدب المعراج والمناقب، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق 2007.
- مرتاض، د.عبد الملك، بنية الخطاب الشعري – دراسة تشريحية لقصيدة ((أشجان يمنية))، دار الحداثة بيروت ط1 / 1986.
- هالبرن، جون ، نظرية الرواية، تر : محيي الدين صبحي، وزارة الثقافة – دمشق ، 1981.
- يقطين ، سعيد ، تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1/1997.